٢٠٢١

الإخوان:
ركائز التأسيس الثاني للتنظيم وملامح سقوط المشروع الإخواني

الكاتب المصري
طارق أبو السعد

ركائز التأسيس الثاني للإخوان المسلمين:

١ التعطش للحل الإسلامي

تأسّست جمعية الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨، ومضى بها المؤسس، حسن البنّا، في طريق زعم أنّه رسمه بدقة ومن زمن بعيد، وأنّه حدّد كلّ الخطوات بمرحلية شديدة، وأنّه لن يحيد عن هذا الهدف، ولا تلك الحدود مقدار أنملة، ثمّ تعرضت الجماعة إلى لحظة توقّفت عن المدّ الفكري والتنظيمي بالمجتمع المصري والعالم العربي، وذلك بعد مقتل حسن البنّا عام ١٩٤٩، وبعد فترة امتدّت لعامين، استقرت الأوضاع في الجمعية، وما لبث المجتمع المصري قليلاً حتى قامت ثورة ١٩٥٢، التي يزعم الإخوان أنّهم شاركوا فيها من اللحظة الأولى، وأنّ ثمة خيانة تمت من ابن تنظيمهم، وعضو الجماعة (جمال عبد الناصر) تجاه الإخوان، ما أدّى

إلى الزج بهم في السجون، وظلت العلاقة متوترة بين الإخوان والنظام الحاكم، قرابة العقدين، ما أدّى إلى توقف نشاط الإخوان كثيراً، وانزوت شعبيتهم وتكسرت عزيمتهم، إلّا أنّ موت عبد الناصر المفاجئ، حمل لهم الأمل، ومع تولي الرئيس أنور السادات سدة الحكم، أتيح لهم العمل مرة أخرى، ومكّن لبعضهم حرية الحركة، إضافة إلى السماح لبعضهم الآخر بالوصول إلى مناصب قيادية في الدولة، وأطلق على هذه العودة لقب التأسيس الثاني للجماعة، ومن المهم جداً أن تنال لحظة التأسيس الثانية اهتمام كثير من الباحثين، فالحركة الإسلامية لم تتأثر كثيراً بأبناء التأسيس الأول، فهؤلاء انتهت بهم الأحداث إلى نهايات مختلفة، بعيداً عن التيار الفكري للحركة الإسلامية، ومن أصبح منهم له دور، كان وفق معطيات التأسيس الثاني؛ وليس وفق مكانته في التأسيس الأول، وكل من تقدم الصفوف الأمامية للإخوان المسلمين، كما أنّ كثيراً من الأفكار التي راجت هي بنت التأسيس الثاني؛ بل لعلي لا أبالغ إن ادعيت أنّ ما نعاني منه مما نتعرض له هو نتاج أفكار التأسيس الثاني، ولا يفهم من كلامي أنّ التأسيس الثاني جاء منفصلاً تماماً عن الأول، أو أنه كان مختلفاً بالكلية عن الجماعة التي صنعها حسن البنا، على أي حال ظهر التأسيس الثاني للإخوان في مطلع السبعينيات، وكان بطل هذه المرحلة، بلا منازع، الأستاذ عمر التلمساني، مرشد الجماعة الثالث، ولم يكن لهذا التأسيس أن يظهر لولا الحصول على ضوء أخضر من أجهزة الدولة، أدرك التلمساني أنّ عليه إقامة أربعة ركائز، ليعيد الجماعة، مرّة أخرى، إلى ساحة المجتمع المصري، الركيزة الأولى: خطاب جماهيري شعبي عاطفي، يعبّر عن الحلم الإسلامي، ويمكن أن يؤسس لمشروع إسلامي يبشّر به الإخوان. الركيزة الثانية: شخصية محورية يلتف حولها أبناء التنظيم والحركة الإسلامية ككل. والركيزة الثالثة: وعاء تنظيمي ومرتّب يضمن تمويلاً جيداً ذا طبيعة رسمية، ويكون رافعةً وعاملاً لدفع الحركة الدعوية في الوقت نفسه. الركيزة الرابعة: أفراد يملؤون الأماكن الشاغرة للإخوان (الأعضاء التنظيميين) الذين تركوا الجماعة في العشرين عاماً الماضية، أو أماكن الذين فرّوا إلى خارج البلاد، ولم يكن عمل الجماعة على التوالي؛ بل كان على التوازي، فعملوا على المحاور الأربعة في توقيت واحد، ولم يكن الأمر لينجح إلّا بمساندة ومساعدة من أجهزة الدولة المصرية، وبعض الدوائر القريبة من أنظمة الحكم في دول الخليج، خاصة السعودية، التي

«ظهر التأسيس الثاني للإخوان في مطلع السبعينيات وكان بطل هذه المرحلة عمر التلمساني مرشد الجماعة الثالث»

سمحت بإنشاء الندوة العالمية للشباب المسلم، وكثير من المراكز الإسلامية، وأنفقت عليها بسخاء. ويمكننا أن نتناول بالعرض تفكيك ركائز التأسيس الثاني لمحاولة فهم الحالة، وتوقع مآلاتها، أمّا الركيزة الأولى: فهي أطروحات الحل الإسلامي، فقدّم الإخوان خطاباً إسلامياً، مضمونه أنّ كلّ ما نعانيه سببه البعد عن الإسلام، وأنّ الحلّ هو العودة للإسلام، ولم ينجحوا في تعريف الحياة الإسلامية التي يقصدونها، لم يفلحوا في إيجاد وابتكار آليات يمكن أن تعيد هذه الحياة الإسلامية المفقودة، فانطلق الشيوخ والوعاظ على المنابر ينقضون الحياة الاجتماعية المعاصرة، بداية بالفنّ والفنانين، وبأسلوب حياة المصريين وملابسهم، مروراً بكرة القدم، وانتهاء برفضهم للحياة السياسية. على اعتبار الحاكم لا يطبق الشريعة الإسلامية، وانتشرت أشرطة خطب الشيخ عبد الحميد كشك، التي كانت تساهم في تجريف الحياة العقلية، وتدفع نحو الإيمان بأنّ هناك حياة إسلامية مفقودة، وهذا المفقود، لو عاد، ستتحقق كلّ أحلام وآمال البسطاء، فكانت كلماته دافعاً لهرب كثير من الشباب من واقعهم، إلى وهم الحياة الإسلامية مع الجماعات السرية.

هذا الخطاب الجماهيري لم يكن باعثاً على الاستنارة، أو الدفع نحو حياة عقلية راشدة، كانت خطبه تمجّد في الماضي، فصرف الشباب عن النظر إلى المستقبل، وللأسف الشديد، قلّده كثير من الخطباء، فكانوا يتنافسون على جذب الأعداد الغفيرة من مريديهم إلى مساجدهم، فراج هذا النوع من الخطاب المخدر العاطفي، ووجد الكثير من مريديه، وأصبح الخطباء، وهم على المنبر، تسكرهم آهات المصلين وتكبيراتهم أثناء الخطبة، وانتشى الخطباء لكثرة المصلين وراءهم، فانتشر أسلوب الخطابة المنفعل، وانزوى أسلوب الخطابة الهادئ، وانشغل دعاة التيار الإسلامي بثلاثة محاور، الأول: تبرئة الإخوان من جرائمهم، وإثبات مظلوميتهم. ثانياً: نقد الغرب. ثالثاً: الدعوة للجهاد. أما تبرئة الإخوان، فقد قام عمر التلمساني بكتابة ثلاثة كتب يدين فيها العهد الناصري مثل كتاب «قال الناس ولم أقل عن عبد الناصر»، وكتاب «ذكريات لا مذكرات»، وأشهر كتبهم: «البوابة السوداء» لأحمد رائف»، و«حصاد العمر» للواء صلاح شادي، و«عندما غربت الشمس» لعبد الحليم خفاجة، و«الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ» لمحمود عبد الحليم، و«مذابح الإخوان في سجون ناصر»، كلّ هذه الكتب تهدف إلى تبرئة الإخوان، وإعطائهم صكّ المظلومية، ليسهل عليهم بعدها التواجد في المجتمع، والقيام بمهمتهم فيه. أمّا المحور الثاني، وهو المعني بنقد الغرب، فكان من زاوية عدائية بحتة، فاعتبروه امتداداً للاعتداء الصليبي علينا في القرون الوسطى، كتاب «قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله» لجلال العالم»، وكتاب «المؤامرة على الإسلام» لأنور الجندي، وكتاب «الضربات التي وجهت للانقضاض على

الأمة الإسلامية»، لأنور الجندي أيضاً، وتأثّر بهذه الحملة الدكتور مصطفى محمود، فألف كتاب «المؤامرة الكبرى»، وبعد أن أصبح الغرب عدواً من منظور ديني، لا محالة، بذلوا جهوداً مضنية لإثبات فشل الغرب، وكذب مظاهر الحضارة التي يعيشون فيها، وأخذوا يبشرون الناس بأنّ هذه الحضارة ليست حضارة، وأنّها ستسقط لا محالة، وأنّ البديل هو المشروع الإسلامي، دون العمل على امتلاك أيّة أداة من أدوات الحضارة، وروّجوا في أوساط المجتمعات العربية والإسلامية.

إنّ العالم يتعطش للحل الإسلامي، فكتبوا تحت عنوان «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، لأبي الحسن الندوي؛ إذ يحاول، في رؤية بائسة، أن يثبت أنّ العالم هو من خسر بانحطاط المسلمين، لا المسلمين أنفسهم، أما المحور الثالث؛ فهو الدعوة للجهاد، وتحديداً الجهاد في أفغانستان، تم الترويج له على أنّه صراع بين الكفر والإيمان، واستخدم الخطباء الصورة الذهنية للصراع بين المسلمين الأوائل وبين الكفار من قريش، وتم تعبئة الجماهير، وشحن مشاعر الشباب المتطلع إلى حياة إسلامية، وإلى الجهاد، والهجرة إلى أرض الجهاد، وتم نشر أكذوبة كبرى عن المجاهدين في أفغانستان، وأنّ الله نصرهم بآيات ومعجزات، في كتاب لعبد الله عزام، أحد المبشِّرين بالجهاد الأفغاني، وهو أحد قادة الإخوان المسلمين الفلسطينيين، يوزّع كتابه «آيات الرحمن في جهاد الأفغان» في كلّ جامعات مصر. ونظّم أعضاء الجماعات الإسلامية، في كثير من الكليات، أسبوعاً ثقافياً عن أفغانستان، يصور معاناة المجاهدين، وقد لاقى هذا التوجه رضى الدول العربية والإسلامية، التي كانت تساند أيّ عمل ضد حكومة أفغانستان، الموالية للاتحاد السوفيتي.

نجح الخطاب الجماهيري العاطفي في مهمته، وهي تجميع طيف إسلامي كبير، ومع نشر الفرضيات الأربع: غياب الإسلام فهماً وسلوكاً ومظهراً، ضرورة العمل لإعادة هذا الإسلام الغائب، المؤامرة الكونية على الإسلام تستوجب جهاد كلّ من مكانه، مظلومية أبناء التيار الإسلامي. ومن هذا الطيف، يقوم أعضاء التيار الإسلامي (بمكوناته الثلاثة) بتجنيد من يناسبهم، ويؤمن بأفكارهم، وكان نصيب الأسد للإخوان المسلمين، ثم السلفيين، وبعد ذلك الجهاديين.

«نجح الخطاب الجماهيري العاطفي في مهمته وهي تجميع طيف إسلامي كبير»

ركائز التأسيس الثاني للإخوان المسلمين:

التعطش للحل الإسلامي ٢

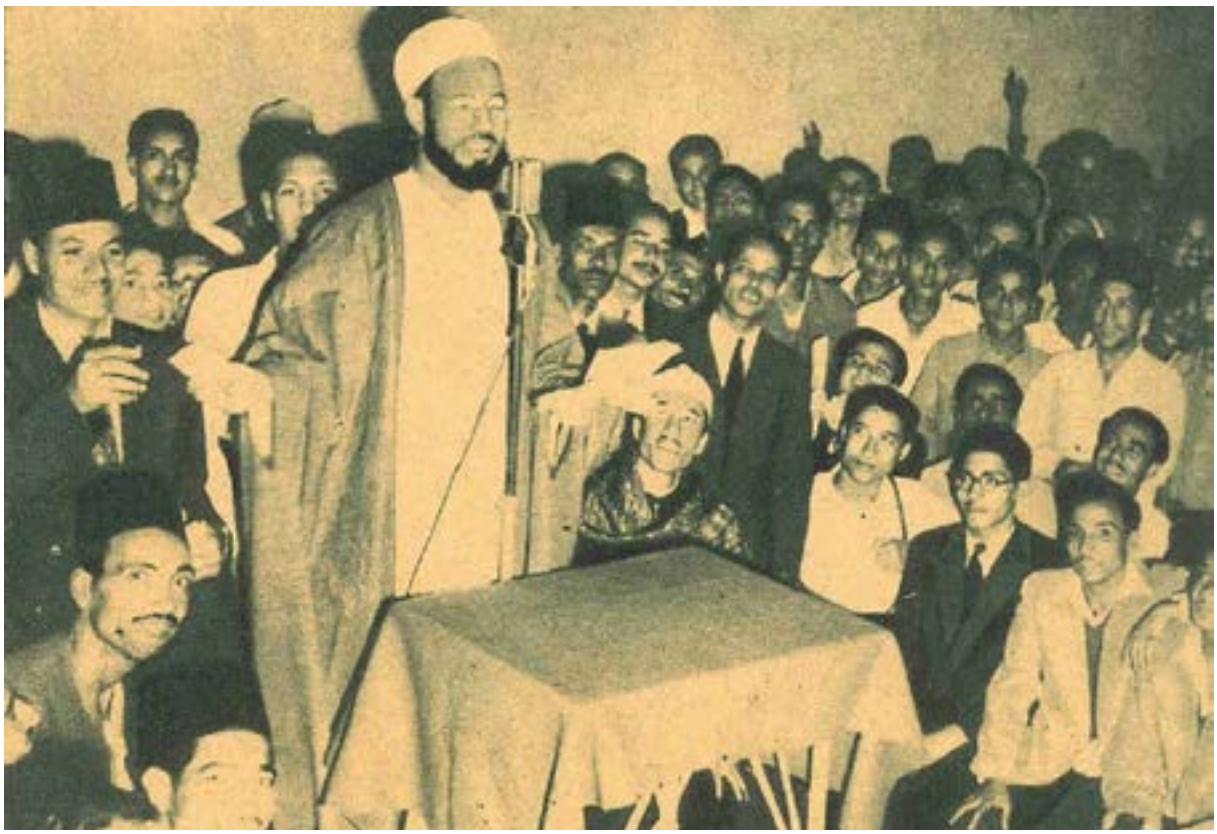

كانت مهمة قادة الإخوان المسلمين، بعد الخروج من السجن، والحصول على الإذن بالعمل العام في المجتمع المصري؛ البحث عن رمزٍ إسلامي يصلح أن يكون ركيزة للتأسيس الثاني، وليس قائداً للتنظيم، ولم تكن مهمة سهلة، فشخصية تأتي من تاريخ الإخوان، لتكون رمزاً يلتف حوله الجميع، يجب أن تحمل سمات فائقة، حتى يصلح تحميل المشروع الإسلامي على أكتافها، وهذه الشخصية يجب أن تمتاز بسمات وعبقرية، وألّا يختلف عليها كثيراً، فاختاروا شخصية حسن البنا، المؤسّس، لتكون بديلاً عن شخصية سيد قطب، الموسوم بالعنف، والمختَلف عليه. حتى داخل جماعة الإخوان نفسها، ولعلّه من المناسب أن أذكر أنّني لم أكن أتعرّض

لشخص حسن البنا لولا أنّ المشروع الفكري للإخوان تم تمريره، في تأسيسه الثاني، عبر شخصية حسن البنا، وعبر تضخيم إنجازاته وصفاته الشخصية، حتّى أنّه، هو نفسه، ألحق الدعوة بذاته، في مذكراته التي أسماها «مذكرات الدعوة والداعية»، إضافة إلى كمّ الدراسات الإخوانية التي تناولت حسن البنا كشخص، والتي تفرض علينا تناول الشخصية بالتحليل، للوصول إلى فهم الحالة ككلّ، احتاجت شخصية حسن البنا إلى عمليات تجميل، لتصلح للمهمة التي استعدّت لها، نسجوا حول حسن البنا الكثير من الأساطير كي يحاط بهيبة، تسمح لأتباعه من الجماعات الإسلامية الانبهار به، ومن ثمّ الإيمان بفكره، وبعدها يسهل تجنيد الآخرين، ودعوتهم للانضمام إلى التنظيمات الإسلامية، أو على الأقل، التعاون بينهم. الإخوان قدموا لنا شخصية حسن البنا، كمجدّدٍ وإمامٍ وأستاذ الجيل، رغم أنّ أحداً لم ينكر قدرة الرجل على انتزاع حبّ مريديه، إلّا أنّ مريديه الذين انتشروا في البلاد، رفضوا أن يكون تقديس حسن البنا محصوراً بينهم، عدّ الإخوان أنّ حسن البنا امتلك فهماً صحيحاً لم يسبقه إليه أحد من جيله، وهذا الفهم هو ركن رئيس من التنظير للحركة الإسلامية، والتيار الإسلامي؛ بل كرّسوا جهودهم الجبارة في إعادة تقديم شخصيته للأمة في السبعينيات من القرن العشرين، كمجدّدٍ لدين الله.

كان المطلوب بطلاً أسطورياً، ولياً، قائداً حكيماً، سياسياً داهية، لضمان استمرار فكر الإخوان، كان عليهم التنصّل من الفكر العنيف الذي وسمت به جماعة الإخوان، خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات والستينيات، فزعموا أنّ البعض هو من فهم أفكار سيد قطب خطأً، وأنّ الاعتدال في فكر حسن البنا، باعتباره البديل الوسطي، لكنّ تاريخ حسن البنا مليء بالصور السلبية، التي لحقت به، فهو مؤسس النظام الخاص المسلح، فكرسوا جهودهم لإثبات أنّه كان من أجل فلسطين، من المعركة مع الإنجليز، كما لاحقت حسن البنا، ثم العمالة للقصر، ولأي حكومة تولّت الحكم، في برجماتية مقيتة، كما يصفه أعداؤه، بهذا حاول الإخوان طمس هذه المرحلة بشخصية حسن البنا الرقيق المحب الزاهد؛ بل الرجل المؤيَّد من الله، فكتب عمر التلمساني كتاب «حسن البنا أستاذ الجيل الملهم الموهوب»، وهو تدشين لعودة

«فكر حسن البنا يحمل البذور الحقيقية للفكر التكفيري والفكر العنيف والمسلح، ويحمل صيغة استعلائية على الناس»

حسن البنا الأسطورة، وفي مقدمة الكتاب، في الصفحة ٤، يقول التلمساني: «هذا ما أوصلنا إليه إمامنا الشهيد، بفضل تتلمذنا عليه، ولما كانت جهوده الجبارة ودأبه وتفانيه، خارجة عن نطاق الجهد العقلي، فهو ملهم فيما يقول، وهو موهوب بطاقة لا يحظى بها إلّا أقلّ القليل، (والله أعلم حيث يجعل رسالته). وفي الصفحة ٥، يقول إنّ حسن البنا شخصية لمعت بذاتها، فهو ملهم من الله، لم يأته الفهم من ذاته؛ إنّما أتاه إلهاماً من الله، وخطورة ذلك في أنّ فكر حسن البنا يحمل البذور الحقيقية للفكر التكفيري، والفكر (العنيف والمسلح)، ويحمل صيغة استعلائية على الناس، ويزعم فهم متلقيه من الرسول والله مباشرة، لم يتلقه من معلم ولا مدرب ولا غيره. وفي الكتاب الذي ترجمه أنور الجندي، «حسن البنا الرجل القرآني روبير جاكسون»، تم طرح حسن البنا كشخصية قلّ أن يكون لها نظير، ولا يجود الزمان بمثلها إلّا على فترات متباعدة، وهم تارة يمجّدون فكرةً، وتارة يصفونه بصفات خارقة للعادة، ومن الصفات التي كان يباهي بها الإخوان غيرهم.

إنّ حسن البنا كان ذا ذاكرة حافظة، تحاكي المشهور عن أئمة علماء الحديث؛ كالبخاري، والإمام الشافعي، وما يقوله الأستاذ أنور الجندي «ذاكرة الأستاذ حسن الحديدية التي تعد أعجوبة من أعاجيب العصر» (ص ١٦)، ويقول أيضاً: (لا نبالغ إذا قلنا إنّ حسن البنا يعرف أسماء ووجوه نصف مليون من أنصاره)، وليس هذا فحسب؛ بل يستطيع أن يحدّث كلّ واحد منهم، عمّا قد يكون وقع له من أنبائه الخاصة (ص ٦٤)، وهذه المبالغة تسقط مع محاولة حسن البنا أن يتذكّر متى أنشأ جماعة الإخوان، فنراه يرتبك، ويذكر تاريخاً ميلادياً مقروناً بالهجري، فلا يلتقيان أبداً، فيقول في مذكرات الدعوة والداعية، تحت عنوان «الإخوان المسلمون»: «وفي ذي القعدة، سنة ١٣٤٧هـ/ مارس ١٩٢٨ (فيما أذكر)، زارني بالمنزل أولئك الإخوة الستة: حافظ عبد الحميد، أحمد الحصري، فؤاد إبراهيم، عبد الرحمن حسب الله، إسماعيل عز، زكي المغربي» (ص ٦٩)، نلاحظ أنّ البنا يقول (على ما أتذكّر): أيّ احتمال للنسيان وارد، لكنّ الإخوان يصرّون على أنّه يتذكر اسم أكثر من نصف مليون شخص! والأغرب في حسن البنا؛ أنّه عندما أراد أن يتذكر متى أنشأ الجماعة، نراه يرتبك، ويخلط، فالتاريخان لا يمكن لهما أن يلتقيا أبداً، ولا بهامش بشري طفيف، فإنّ ذو القعدة ١٣٤٧هـ يوافق نيسان ١٩٢٩، وليس

«أفرط الإخوان المسلمون في طبع ونشر «في ظلال القرآن» وتقديمه كمفسر وأديب وليس صاحب اتجاه فكريّ تكفيريّ»

آذار ١٩٢٨ـ أمّـا آذار ١٩٢٨ فيوافـق رمضـان ١٣٤٦هـ، وليـس ذو القعـدة ١٣٤٧هـ، كان مـن الممكـن أن تكـون مشـكلة، لـولا إصرار أتباعـه بنسـج الشـخصية الأسـطورية ذات الذاكـرة الحديديـة، وممّـا يـروى عـن حسـن البنـا: أنّـه أعـدّ ردّاً مفحمـاً لطـه حسـين، عـن كتابـه المعـروف بالشـعر الجاهـلي، وقـد أعـدّت جمعيـة الشـبان المسـلمين نـدوة لدراسـة هـذا الكتـاب. جلـس طـه حسـين في ركـن مظلـم يسـمع النقـد، وأعجـب بـردّ حسـن البنـا المرتـب، بالصفحـة وبالرقـم، وقـال لـه بعـد المحـاضرة: ليـت كلّ مـن نقـدني انتهـج نهجـك، إذاً، يملـك الإخـوان رداً عـلى هـذا الكتـاب! فأيـن هـذا الـرد؟ ولمـاذا لـم ينـشر في أيّ مـن صحفهـم؟ ولمـاذا لـم يـدرس في أيّ مـن كتبهـم؟ مـن الواضـح أنّهـم كانـوا في حاجـة شـديدة لإضفـاء كلّ الصفـات الخارقـة عليـه.

نجـح الإخـوان قليـلاً في هـذا الشـأن، وأصبـح للإخـوان شـخصية يلتفـون حولهـا، وهـي حسـن البنـا، الـذي أصبـح في أدبيـات جيـل السـبعينيات ومـا بعدهـا (الإمـام الشـهيد حسـن البنـا)، ولـم يعـد أحـد يتذكّـر عمليـات التنظيـم الخـاص، ولا أفـكار سـيد قطـب، وحـاول الإخـوان بغسـل وجـه سـيد قطـب بكثـير مـن الدفـوع، وأفرطـوا في طبـع ونـشر كتـاب «في ظـلال القـرآن»، وتقديـم سـيد قطـب كمفـسّرٍ وأديـبٍ، وليـس صاحـب اتجـاه فكـريّ تكفـيريّ.

٣
التأسيس الثاني للإخوان المسلمين .. ضمّ العناصر

خرج الإخوان المسلمون من السجون، في آخر عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وبداية عهد الرئيس أنور السادات، ولم يكن لديهم طموح كبير في العودة إلى المشهد السياسي أو الدعوي، إلّا أنّ الأجواء الدولية والأوضاع المصرية، كانت تحتاج إلى فكر جديد ومشروع جديد، فخطاب القومية تعثّر، وخطاب الاشتراكية انهزم في المواجهة مع «إسرائيل»، فأصبحا مشروعين لا يصلحان للعهد الجديد، ولرغبة الرئيس السادات في أن يتميّز عن سابقه، ولرغبة أمريكا في تنامي الخطاب الإسلامي الجهادي، لحاجتها إلى متطوعين في مناطق الاشتباك مع الاتحاد السوفيتي وقتها، تمّ الإفراج عن مكوّنات الخطاب الإسلامي الجديد، ولأنّ التنظيمات لا يكفيها خطاب عام إعلامي، لتقوم بمهمتها؛ بل تحتاج دائماً إلى أفراد مؤمنين، يقومون بنشره في أوساط المجتمع؛ لهذا سمحت الدولة المصرية للشباب الجامعي، أن يكوّنوا، فيما بينهم، جماعات أو جمعيات أو أسراً دينية، على أمل أن يساعد المناخ الرحب، وهذا الانتماء الجديد في تكوين الوعي الإسلامي المقصود،

وكما يقول الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح، في كتاب «شاهد على تاريخ الحركة الإسلامية»، إنّ السادات لم يكن يضع العراقيل أمام التيار الشبابي الإسلامي، وكان يقبل هفواتهم، لما يحقق ذلك من توازن في موازين القوى

المجتمعية، بين سياسات دولة عبدالناصر، وتوجّهات دولة السادات الجديدة، فانبرى أعضاء الإخوان القدامى، المختبئون في الجمعية الشرعية، وأنصار السنة المحمدية، بهذا الدور، فأشاعوا أنّ الاشتراكية والقومية هما سبب الهزيمة.

وللحقّ، فقد كانت الهزيمة أمام «إسرائيل» قاسية على المصريين، والعالم العربي ككل، وهذا ما أعطى الإخوان فرصة للحديث بحريّة، والتستّر وراء الخطاب الديني الذي تبنّته الدولة المصرية الرسمية، فقد كان الشيخ الغزالي يخطب في مسجد «عمرو بن العاص»، كما كان للشيخ سيد سابق دروس دينية فقهية، كانت كلّها تصبّ في توفير أجواء دينية إسلامية، ولم يكن الهدف في هذه المرحلة ضمّ العناصر، بقدر ما كان الهدف إثارة تساؤل الشباب وتوليد الحيرة لديهم، ليتهيّأ الشاب ويتقبّل الإجابات الإخوانية، التي تدعوه للانضمام إليهم في النهاية، فالشاب القلق الحائر الذي لا يعرف إلى ماذا ينتمي، ولا إلى أيّ فكر يتبع، تسهل تهدئته بإجابات سطحية، أسهلها وجوب العمل مع جماعة إسلامية، وهذا ما أشار إليه الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح في كتابه المذكور، فقد اعتاد الإخوان أن يصلّوا في المساجد التي يؤمّها عدد كبير من الشباب، ويفضّل أن يكون الخطيب من الإخوان، وبعد خطبته الكبيرة والقوية عن عظمة الإسلام، وخطر غيابه عن حياة المسلمين، وأنّ الهزيمة تتنزل على من يعادي الفكر الإسلامي، وأنّ النصر وعد الله لمن يتبع خطى الإسلام، يقوم أحد الإخوان الكبار، وهو الدكتور أحمد الملط، ويسأل الشيخ الغزالي: وما العمل، يا مولانا؟ فيجيب مولانا: هذا دوركم أنتم، وهذا ما يجب أن تجيبوا عنه. يقصد الإخوان، وهي حيلة مشهورة ومعروفة لتوصيل إجابات بعينها للحاضرين، أنتج الحراك والنشاط الإسلامي سيولة فكرية، وانتماءات مزدوجة، أو غير محسومة، لدى كثيرين، خاصةً الشباب، فظهرت حالات التديّن الفردي والتدين الجماعي، وإن كان في جماعات صغيرة.

لم يكن الانتماء إلى جماعات إسلامية مزعجاً للدولة المصرية، ولم تكن ترغب في إخافة الشباب، فلم يكن مطلوب ضبط

« أعضاء الإخوان القدامى المختبئون في الجمعية الشرعية وأنصار السنة المحمدية أشاعوا أنّ الاشتراكية والقومية هما سبب الهزيمة»

عنفوانهم الحركي، فهذه الفورة الإسلامية صالحة لضخّ شباب مجاهد في مناطق الجهاد الإسلامي المحتملة، فغضّت أجهزة الدولة الطرف عنهم، رغم حماقات البعض منهم، وطوال فترة ما بين ١٩٦٨ وحتى ١٩٧٣، كانت تحرّكات الإخوان محدودة، وتنظيم لقاءاتهم بسيطة، ولم يكن التنظيم يملك أعداداً كبيرة، ولا يملك روافد شبابية، ربّما لتخوّف حسن الهضيبي، المرشد وقتها، وربّما لأنّ الإخوان، بطريقتهم التقليدية المعهودة، لم تكن تشبع رغبات الشباب في الانطلاق، وامتلاك قراراتهم بأنفسهم، إلى أن حدثت قضية الفنية العسكرية؛ إذ انخرط كثير من شباب الحركة الإسلامية فيها، التي كانت كافية لأن ينقلب السادات على التيار الإسلامي كلّه، فحياته أصبحت خطراً، كانت الفنية العسكرية عملاً طائشاً بكلّ المعايير، إلّا أنّه أظهر ما ينويه الإسلاميون بالسادات، وكانت نقطة أظهرت خطورة اللعب بورقة التيار الإسلامي غير المنظم، فرئيس الدولة نفسه في مرمى هذه الجماعات. الغريب أنّ السادات، لم يقم بالتضييق على التيار الإسلامي؛ بل على العكس، سمح بتدليل الشباب في الجماعة الإسلامية، ربّما فكّر، مع بعض معاونيه، في ترشيد الأجواء الإسلامية التي صنعها بنفسها، لم ينتصف عقد السبعينيات، إلّا وأمراء الجماعة الإسلامية قد أصبحوا نجوماً وأبطالاً لدى الشباب، فيذكر أبو الفتوح، أنّه عندما قُبض عليه، في مطلع العام ١٩٧٤، كانت بحوزته منشورات، فاقتاده الضابط، والقوة التي معه، إلى قسم الشرطة، وعندما علم رئيس الجامعة، جاء مسرعاً، وتوسّط للإفراج عنه، وبعد تفاهمات مع المسؤولين في قسم السيدة، سمح له المأمور بالخروج، إلّا أنّ عبد المنعم رفض الخروج، إلّا والمنشورات معه، وبعد شدٍّ وجذبٍ وتهديدٍ ووعيدٍ من عبد المنعم، حصل على منشوراته، وذهب إلى الجامعة منتصراً منتشياً كبطلٍ معارضٍ، تلك البطولة أعطتها له الدولة الرسمية، فانتزع إعجاب الشباب، والحكومة لم تكن عاجزة أمام هؤلاء الأمراء، فلديها الخشونة الكافية للتعامل معهم، على الأقل كما تعاملت مع الطلاب الشيوعيين والناصريين واليساريين، الذين نظّموا اعتصام الكعكة الحجرية الشهير، في ميدان التحرير، عام ١٩٧٢، وهو الاعتصام الذي شاركت فيه مجموعة كبيرة من الطلاب، إضافة إلى مجموعة أخرى من الشعراء والكتّاب

«الشاب القلق الحائر الذي لا يعرف إلى ماذا ينتمي ولا إلى أيّ فكر يتبع تسهل تهدئته بإجابات سطحية»

والمثقفين، واستمر الاعتصام لمدة ٨٤ ساعة تقريباً، الأمر الذي دفع بأجهزة الأمن إلى اقتحام الميدان، وتفريق المعتصمين، وإنهاء الأزمة، كان واضح للجميع أنّ اتجاهات الدولة نحو التيار الإسلامي الوليد هي الرعاية، لهذا تحمّلته كثيراً، رغم كلّ شيء، وتكوّنت الجماعات الإسلامية بأمراء طلاب، خبراتهم محدودة وضعيفة، يملؤهم الزهو بخضوع الدولة لهم، فنظّموا رحلات العمرة إلى السعودية، وتمّ استقبالهم في المملكة، على اعتبارهم أمراء للجماعات الإسلامية، وتشرّبوا الفكر السلفي، وحملوا قضاياه معهم، وتبنّوا أفكاره، وظهر هذا في زيّهم، والرأي العام الذي شغلوا به الجامعة في السبعينيات، وعندما زاد الأمر عن حدّه، تدخّلت الدولة لضبط وترشيد الحالة الإسلامية، فجاء اتفاق السادات الشهير مع عمر التلمساني، المرشد الثالث للإخوان المسلمين.

وحول المعلومات التي تؤرّخ بداية الانخراط الفعلي لكوادر الجماعة الإسلامية، داخل الأطر التنظيمية الإخوانية، يقول أبو الفتوح: إنّ قادة وأمراء الجماعة الإسلامية، انضموا في نهايات عام ٤٧٩١، ولأسباب لم يذكرها أبو الفتوح، كتم القادة انضمامهم للإخوان طوال الأعوام الخمسة التالية، قد يكون هذا الإخفاء بوحي من رجال التنظيم السري، الذين التقى بهم أبو الفتوح، فقد التقى، أولاً، بكمال السنانيري، ثم بالحاج عباس السيسي، وفي المرتين كان اللقاء يتم بشكل سري مبالغ فيه، رغم أنّ الأجواء لم تكن تستدعي كلّ هذه السرية والبوليسية، في إعداد اللقاءات، ربما يبرّر أبو الفتوح ذلك بقوله: «خشينا أن نواجه بعنف من قبل النظام»، وهو مبرّر غير كافٍ، فالنظام هو الذي فتح الطريق بالفعل أمام قادة الإخوان للتواجد، وهو الذي سمح للجماعة الإسلامية، المنتشرة في جميع جامعات مصر، بالعمل، وأعطاها الحرية الكاملة. وفي كل الأحوال؛ لم يتردّد الإخوان في ضمّ الشباب، أمراء الجماعات، إلى صفوفهم التنظيمية، وسرعان ما أصبحوا أعضاء في جماعة الإخوان؛ إذ كانوا يعدّون أنفسهم بديلاً للسلطة، استكمل الإخوان عدة التأسيس الثاني، بملء فراغات التنظيم بأفراد جدد، وبأعداد وفيرة. وهذه المرة، لم يتعب الإخوان في ضمّ القادة، وأصبح من السهل بعدها إقناع الأفراد، التابعين للأمراء، بالانضمام إلى الإخوان، وهذا ما تمّ فعلاً، وبشكل علني، عام ٩٧٩١م، بانضمام كثير من أعضاء الجماعة الإسلامية إلى الإخوان،

«تكوّنت الجماعات الإسلامية بأمراء طلاب خبراتهم محدودة وضعيفة يملؤهم الزهو بخضوع الدولة لهم»

أصبحنا أمام الجماعة الجديدة للإخوان المسلمين، جديدة في الهيئة، وفي الشكل، وفي القضايا التي تتبنّاها، كانت الصفة المشتركة بين القادة التاريخيين والأعضاء الجدد؛ هي ميل الجميع إلى التغيير بالقوة، والتعالي على المجتمع، على اعتبارهم فاقدين للفهم، أو لديهم خلل في العقيدة، أو منحلّي السلوك.

٤

التأسيس الثاني للإخوان المسلمين:

صناعة هيكل تنظيمي هرمي

بخروج قيادات الإخوان من السجون، وتزامناً مع قيام الدولة الرسمية بتدشين خطاب إسلامي شعبي يعبّر عنها، أُتيحت للإخوان فرصة لإعادة تأسيس الجماعة من جديد، فاستغلّ الوعاظ الإخوان (الرسميون)، فرصة اعتلائهم منابر المساجد الشهيرة، التي تكتظّ بالشباب، وما أتاحه لهم السادات من حريات، فدسّوا أفكارهم التنظيمية بداخل خطبهم المنبرية، وكان من نتيجة ذلك؛ أن تجاوَب عدد كبير من الشباب مع تلك الأفكار، وتجاوُب الشباب كان على شكلين: الأوّل

الـتزام ظاهـري (الهـدى الظاهـر) فقـط؛ أيّ ظهـور الالـتزام في الشـكل، وفي الملبـس، وفي إحيـاء لسـنن فرديـة، دون الوصـول إلى أبعـد مـن ذلـك، والشـكل الثـاني: الالـتزام بالهـدى الظاهـر، والانضمـام لجماعـة إسـلامية، ومـن هنـا تكونـت المجموعـات الإسـلامية الـتي كانـت النـواة للتنظيمـات الإسـلامية الكـبرى، تعـدّدت الجماعـات الصغـيرة عـلى السـاحة المصريـة في مطلـع السـبعينيات، وتميّزت هـذه المجموعـات بأنّهـا ليـس لهـا اسـم أو لائحـة، أو قواعـد منظّمـة للعضويـة تقريبـاً، كان أكـثر مـا يمـيز هـذه المجموعـات أنّهـم يمتلكـون عاطفـة قويـة، ورغبـة جامحـة، نحـو تطبيـق مـا فهمـوه عـلى أنّـه إسـلام؟ لكـن مـع اقترابهـم مـن الفكـر التكفـيريّ، وتقبّلهـم لفكـرة اسـتخدام العنـف للتغيـير، أصبـح وجـود هـذه المجموعـات منفـردة دون راعٍ يمثّـل خطـراً كبـيراً عـلى الدولـة وعـلى المجتمـع المـصري، أدرك هـذا الأمـر الرئيـس الأسـبق، محمـد السـادات، وأدرك أنّ مـا يحـدث لـن يكـون في صالحـه، ولـن يحقـق الهـدف الـذي مـن أجلـه صنـع الخطـاب الإسـلامي، ولعـلّ أقـرب مثـال عـلى ذلـك قضيـة الفنيـة العسـكرية، وعـن طـلال الأنصـاري أنّـه قـام بتنفيذهـا مـع صالـح سريـة بصفتهـم أعضـاء في جماعـة الإخـوان؟! وهـو مـا أنكـره الإخـوان عـلى طـول الخـط، وبـات واضحـاً أنّ عـلى الدّولـة والإخـوان توضيـح العلاقـة التنظيميـة بـين الأفـراد والجماعـة، وبـين الأفـراد والتنظيمـات الأخـرى، حـتى لا يحـدث لبـس لـدى أي أحـد اتصـل بالإخـوان، أو التقـى بـأي مـن قادتهـم، فيتوهّـم أنّـه بهـذا قـد قـدم بيعـة للإخـوان أنّـه أصبـح فـرداً منهـم، لهـذا قـام السـادات بالسـماح للإخـوان بالعمـل بشـكل علـني، لضـمّ هـؤلاء الطـلاب، أو تلـك الجماعـات الصغـيرة إليهـم، وفي الوقـت نفسـه، قـام قـادة الإخـوان بوضـع لائحـة تنظـم عضويـة الشـباب القـادم مـن جماعـات أخـرى، فتـمّ ضـمّ أمـراء هـذه الجماعـات أولاً، وإقناعهـم بالعمـل تحـت مظلّـة تنظيـم الإخـوان المسـلمين، عـلى أن يتـمّ ضـمّ بـاقي الجماعات لاحقـاً، وفعـلاً تـمّ لهـم مـا أرادوا عـام ٥٧٩١، وهـو العـام الـذي تـولّى فيـه عمـر التلمسـاني منصـب المرشـد العـام بعـد وفـاة حسـن الهضيـبي، وعندمـا تمكّـن تنظيـم الإخـوان

«أدرك الإخوان حاجة الجماعة لبناء قوي يجدد شباب الجماعة، فعمد التلمساني لإعادة ترتيب التنظيم؛ واختار له أن يكون هرمياً»

مـن السـيطرة عـلى هـؤلاء القـادة (الأمـراء)، سُـمِح لبعضهـم بتبـوّؤ بعـض المناصـب الإداريـة العليـا في التنظيـم، لكـن اكتشـف قـادة الإخـوان أنّ آليـات عمـل التنظيـم متيبسـة كثـيراً، لابتعادهـم في السـجن فـترات طويلـة، فقـد كانـت الجماعـة وقتهـا تسـير عـلى لائحـة ١٥٩١ الـتي أقرّهـا مكتب الإرشـاد في اجتماعـه، في ٢ تشريـن الثـاني (نوفمـبر) العـام ١٥٩١، ورغـم أنّ هـذه اللائحـة لا بـأس بهـا إلّا أنّهـا تناسـب تنظيمـاً كبـيراً وقويـاً، أفـراده معروفـون، لكـن مـا يحتاجـه الإخـوان هـو وعـاء تنظيمـي جديـد، يسـمح بقبـول الأعـداد الجديـدة القادمـة مـن تنظيمـات شـتى، ومـن أفـكار مختلفـة، فأدركـوا حاجـة الجماعـة لبنـاء قـوي منظـم يجـدد شـباب الجماعـة، ويعيـد لهـم الحيويـة، لتكـون الجماعـة قـادرة عـلى مواجهـة التحديـات، والقيـام بالمهـام الجديـدة، والاسـتعداد لاسـتيعاب الأعضـاء الجـدد الوافديـن مـن الجماعـة الإسـلامية، أو نتـاج الدعـوة الفرديـة في غـير الجامعـة (التجنيـد).

لهـذا عمـد عمـر التلمسـاني إلى إعـادة ترتيـب وتنظيـم الجماعـة؛ فـكان بحاجـة إلى

هيكل إداري محكم وواضح، واختار له أن يكون هرمياً يعتمد على القاعدة الإخوانية، ويتدرّج بها إلى القمة، وحدّد شروط العضوية التي تضمن تمايز الفرد الإخواني عن باقي أعضاء التيار الإسلامي السائد، فلم يعد يكفي أن يلتزم الفرد بأفكار الإخوان ليكون عضواً في الجماعة؛ بل أصبح عليه أن يجتاز فترة اختبار، وكان يحتاج إلى آلية مقبولة لانتقال أعضاء الإخوان من درجة عضوية إلى أخرى، وقواعد لعضوية المكاتب الإدارية الجديدة التي حرص أن يكون بها نسبة من الأعضاء الجدد، وكذلك قام عمر التلمساني بتحديد الأقسام الرئيسة التي لا غنى عنها في مكاتب المحافظات، لهذا قام عمر التلمساني، في ٠١ أيار (مايو) ٨٧٩١، بإصدار اللائحة الجديدة للإخوان، التي تعدّ قانون النظام الأساسي للجماعة، ولعلّ اللّافت للنظر أنّ اللائحة ركزت على شروط العضوية للفرد بشكل دقيق؛ ففي المادة الرابعة من اللائحة (أ- يقضي المرشح لعضوية الجماعة مدة ستة أشهر، على الأقل، تحت الاختبار، فإذا ثبت قيامه بواجبات العضوية مع معرفته بمقاصد الدعوة ووسائلها، وتعهّد بأن يناصرها ويحترم نظامها، ويعمل على تحقيق أغراضها، ثمّ وافقت الجهة المسؤولة عنه على قبوله عضواً في الجماعة، فيصبح أخاً منتظماً لمدة ثلاثة أعوام.

ب-إذا ثبت خلال الأعوام الثلاث، الآنفة الذكر، قيام الأخ بواجبات عضويته، فللجهة المسؤولة أن تعدّه أخاً عاملاً، ويؤدّي العهد الآتي: (أعاهد الله العظيم على التمسك بأحكام الإسلام والجهاد في سبيله، والقيام بشروط عضوية جماعة الإخوان المسلمين وواجباتها، والسمع والطاعة لقيادتها في المنشط والمكره، في غير معصية، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وأبايع على ذلك، والله على ما أقول وكيل) كان قسم الطلبة هو القسم الأساسي الذي اعتمد عليه الإخوان في ملء فراغات التنظيم، مع إعادة الاعتماد على الأسرة التربوية، باعتبارها الخلية الأولى للتنظيم، والأسرة التربوية الإخوانية هي مجموعة من الأعضاء المتناسبين إلى حدٍّ ما، في العمر والثقافة، ويرأسهم مسؤول، أو أمير، يتم تلقين الأفراد فيها بعضاً من الثقافة الإسلامية، مثل: (دارسة الفقه الإسلامي من كتاب فقه السنة لسيد سابق، كما يتم تلقينهم بعضاً من سيرة الرسول من

«حدّد التلمساني شروط العضوية التي تضمن تمايز الفرد الإخواني عن باقي أعضاء التيار الإسلامي السائد»

كتاب فقه السير للغزالي، أو السباعي، أو البوطي، وبعضاً من الرقائق والروحانيات، والعقيدة الإسلامية من كتاب الإيمان: أركانه، حقيقته، نواقضه للدكتور محمد نعيم ياسين، وبعضاً من التفسير للقرآن الكريم من كتاب ابن كثير، مع الإلزام بحفظ آيات قرآنية معينة، لم يكن الدور الحقيقي للأسرة هو التحصيل الثقافي، إنّما كان دورها، الأول والأخير، هو ضبط الأفراد تنظيمياً، وتجهيزهم لأن يكونوا جنوداً، عبر غرس مبادئ السمع والطاعة، والتنازل عن الرأي الفردي مقابل الرأي الجماعي، وفي الأسرة يتمّ فرز من يصلح للعبور للمرحلة التالية من الأعضاء، ومن يبقى في دائرة المحبين، ونظراً إلى اقتراب الأعضاء الجدد من الفكر السلفي، تمّ تغيير بعض المناهج التربوية لتناسب هذا التغيير، فاختاروا مجبرين بعض القضايا الغريبة على الجيل الأول من الإخوان، مثل: قضية اللحية، وإطالة الثوب، وقضية زيّ المرأة، وما هو المقصود بحجاب المرأة، وقضية فصل البنات عن البنين في الجامعة، والصلاة في المساجد التي بها قبور، وعدّوها مدخلاً للعمل الإسلامي الشعبي في هذا الوقت، كما كانت قضية استخدام العنف في التغيير مقبولة جداً لدى هؤلاء الطلاب، أو على الأقل، لا تجد رفضاً منهم، ولم يكن الأمر محسوماً، وكان الخلاف فقط حول التوقيت والأسلوب والجدوى منه، كانت أفكار الطلاب مزيجاً غريباً من السلفية والجهادية والتنظيمية الإخوانية، وفي نهاية المطاف؛ استطاع الإخوان ضمّ كثير من أمراء وأعضاء الجماعات الإسلامية الطلابية، في القاهرة والإسكندرية والبحيرة والشرقية، وكثير من مدن ومحافظات الوجه البحري، لكنّهم فشلوا مع أمراء الجماعة الإسلامية وأعضائها في وجع قبلي (الصعيد)، الذين أصرّوا على موقفهم من عدم الانضمام إلى الإخوان، وعندما تمكّن الإخوان من بناء تنظيمهم القوي تماسكت لبناته، بدأوا العمل لضمّ أعضاء جدد من داخل المجتمع، ليعدّ العدة للوصول إلى الحكم، عبر التوغّل في النقابات المهنية المختلفة، ومحاولات التحوّل إلى حزب سياسي، أو أن يكون لهم حزب يعمل كظهير سياسي، والدّخول في انتخابات البرلمان والتحالفات مع الأحزاب السياسية القائمة، والدخول في المجالس المحلية للقطر المصري، إضافة إلى العمل من خلال الجمعيات الخيرية المختلفة، لنشر فكرة وسطية الإخوان، وامتلاكهم حلّ مشكلات مصر، إنّ ما نشاهده الآن من قادة الإخوان هو نتاج هذا التأسيس، والله أعلم.

ملامح سقوط المشروع الإخواني:
فشل التربية الإخوانية في إيجاد الفرد المسلم

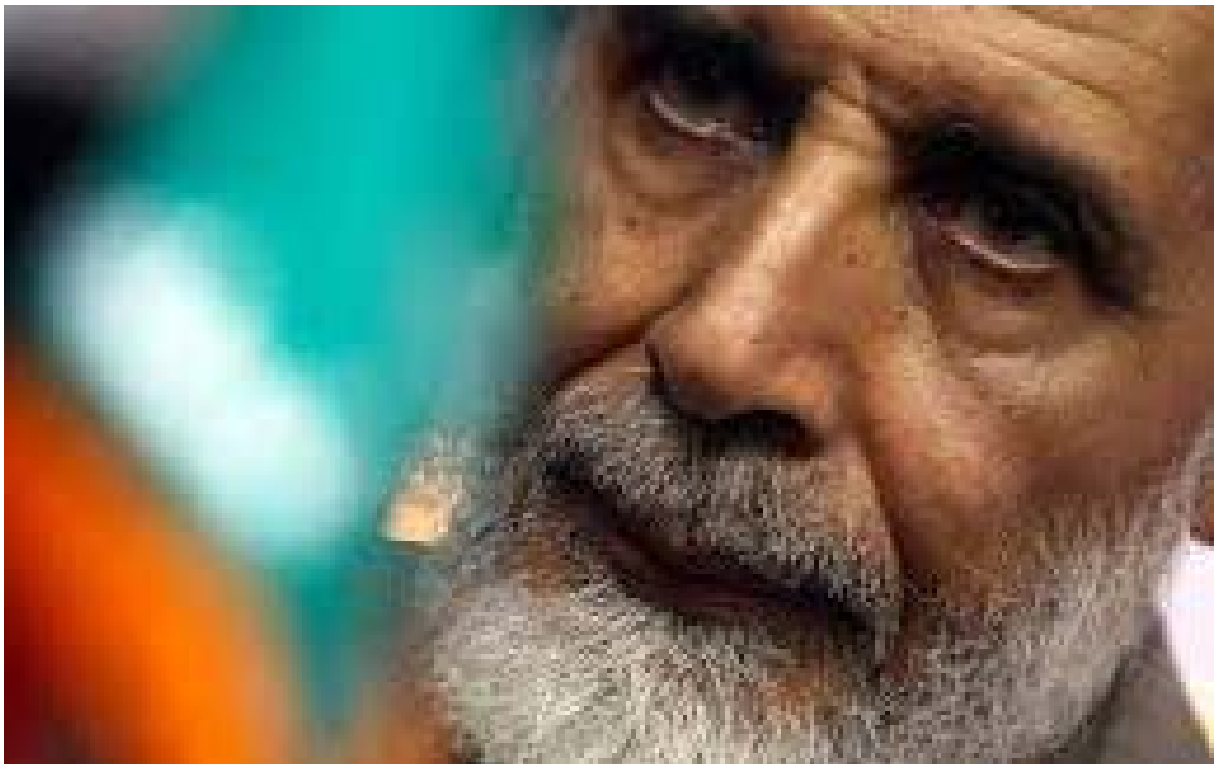

للحكم بنجاح أو فشل أية مؤسسة، علينا أن ندرك أهدافها التي ألزمت نفسها بها، ومدى تطابق هذه الأهداف مع منتجها؛ لهذا إذا أردنا أن نحكم على مشروع الإخوان الفكري، علينا أن نتعرف إلى إهدافهم ووسائلهم، ثم نقيس منتجهم النهائي، ومشروع الإخوان يرتكز على شقّين:

الأول: «فكري أيديولوجي»، يطالب بإقامة دولة دينية ليحكم الإخوان الشعب نيابة عن الله، والثاني: «تطبيقي عملي» بإنزال أفكار المؤسس المجردة على أرض الواقع، أو على الأقل محاولة ذلك.

في الشقّ الفكري؛ رتّب حسن البنا مفاهيم وقيم الإسلام بطريقة تجعل

تابعيه يؤمنون بأنّ الانضمام للجماعة فرض عليهم من الله، وأنّ الانضمام إلى جماعة الإخوان يضمن لهم أحد الحسنيين؛ إما الانتصار وإقامة الدولة الإسلامية، أو حصد الحسنات أكثر من باقي المسلمين، عبّر عن هذا حسن البنا في رسالة «تحت راية القرآن»: «من تبعنا الآن فقد فاز بالسبق، ومن تقاعد عنا من المخلصين اليوم فسيلحق بنا غداً، وللسابق عليه الفضل، ومن رغب عن دعوتنا، زهادة أو سخرية بها، أو استصغاراً لها، أو يائساً من انتصارها، فستثبت له الأيام عظيم خطئه، وسيقذف الله بحقنا على باطله فيدمغه، فإذا هو زاهق، فإلينا أيها المؤمنون العاملون، والمجاهدون المخلصون، فهنا الطريق السويّ، والصراط المستقيم)، ولم يكن البنا يريد فقط إيمان الناس بصلاحية فكرته، لكنّه كان يريد أن ينضموا إليه في التنظيم ليطبق عليهم أفكاره عملياً؛ فالأفكار تظلّ تسبح في عالم الخيال طالما لم تجد من يحاول تطبيق تلك الأفكار على الواقع.

ويمر مشروع الإخوان بسبع مراحل؛ كل مرحلة تمثل هدفاً مستقلاً، وهذه الأهداف متوالية حددها لهم حسن البنا في رسالة إلى الشباب، وهي:

أولاً: نريد الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه. ثانياً: نريد بعد ذلك البيت المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، ونحن لهذا نعنى بالمرأة عنايتنا بالرجل، ونعنى بالطفولة عنايتنا بالشباب، وهذا هو تكويننا الأسري. ثالثاً: ونريد بعد ذلك الشعب المسلم، رابعاً: ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى المسجد. خامساً: ونريد بعد ذلك أن نضم إلينا كل جزء من وطننا الإسلامي. سادساً: استعادة البلدان التي كان مسلمة ثم استردها أهلها مثل إسبانيا (الأندلس) و(صقلية)؛ فالأندلس وصقلية والبلقان وجنوب إيطاليا وجزائر بحر الروم. سابعاً: نريد بعد ذلك ومعه، أن نعلن دعوتنا للعالم، وأن نبلغ الناس جميعاً؛ أي (أستاذية العالم).

«مشروع الإخوان يرتكز على شقّين الأول فكري أيديولوجي يطالب بإقامة دولة دينية ليحكم الإخوان الشعب نيابة عن الله»

غـنيّ عـن البيـان أنّ هـذا التسلسـل لإقامـة الدولـة ولسـيطرته عـلى العالـم سـاذج جـداً، لكننـا عـلى أيـة حـال لـن نناقـش واقعية هـذه الفرضيـة أو صحتهـا، لكـن سـنناقش مـدى نجـاح أو فشـل الإخـوان في تحقيـق هـذه الأهـداف، أو العبـور بهـذه المراحـل، مسترشـدين بمعيـار النجـاح الـذي وضعـه حسـن البنـا نفسـه، وسـنكتفي بالمراحـل الأربـع الأولى؛ فهـي الـتي اسـتحوذت جـلّ اهتمـام الإخـوان طـوال العقـود الماضيـة، وهـي: (الفـرد – الأسرة – الشـعب - الحكومـة).

يبـدأ الشـق الثـاني؛ أي «التطبيـق العمـلي» مـن مـشروع الإخـوان، في محاولـة لإيجـاد الفـرد المسـلم، عـبر المؤسسـات التربويـة للتنظيـم، ورغـم نجـاح الإخـوان في ضـمّ عنـاصر كثـيرة، لكـن يظـلّ معيـار النجاح الوحيـد هـو توفـر هـذه سـمات وخصائـص الفـرد المسـلم في أفـراد الإخـوان، كمـا حـدد البنـا في رسـالة «التعليـم» وهـي كالآتي: (أن يكـون قـوي الجسـم، متـين الخلـق، مثقـف الفكـر، قـادراً عـلى الكسـب، سـليم العقيـدة، صحيـح العبـادة، مجاهـداً لنفسـه، حريصـاً عـلى وقتـه، منظمـاً في شـؤونه، نافعـاً لغـيره، وذلـك واجـب كلّ أخ عـلى حدتـه)؛ لهـذا عملـت كافـة المؤسسـات التربويـة مـن أجـل إنتـاج هـذا النمـوذج، فهـل امتـاز الإخـوان فعـلاً بهـذه الصفـات؟ هـل جعلـت الجماعـة أعضاءهـا أقويـاء الجسـد؟ وهـل قدمـت الجماعـة برامـج رياضيـة لنـشر الثقافـة الرياضيـة؟

الواقـع: لـم ولـن يكـن في مسـارات العمـل الإخوانيـة أي نشـاط ريـاضي خـاص يحقـق هـذه السـمة، كمـا لا يمكننـا أن نقـول إنّ أفـراد الإخـوان يمتـازون بقـوة الجسـم، بخـلاف مـا يمتـاز بـه المجتمـع والبيئـة المحيطـة بهـم، لقـد تـرك الاهتمـام بالرياضـة، بحسـب ميـول كل فـرد إخـواني، لهـذا لا يمكننـا أن نثبـت لهـم هـذه السـمة، السـمة الثانيـة الـتي كان يجـب أن يمتـاز بهـا أفـراد الإخـوان هـي «متـين الخلـق»، ورغـم ادّعـاء الإخـوان أنّ أفرادهـم تحققـت فيهـم هـذه الصفـة، إلا أنّ الواقـع يكذبهـا، فبالنظـر لـردود الإخـوان عـلى معارضيهـم نكتشـف بسـهولة مـدى الـتردي الأخـلاقي الـذي وصلـوا إليـه، ومـع حرصهـم عـلى نـشر ألفـاظ مثـل: «إعـلام العهـر، وإعـلام قـوم لـوط، المعارضـة المخنثـة..»، مـع إصرارهـم عـلى وصـف الشـعب المـصري بأنـه «شـعب عبيـد للبيـادة، أو أنـه شـعب حمـار يجـب أن يهـزّ ذيلـه»، ناهيـك عـن كـمّ السـباب المنتـشر في صفحاتهـم، سـواء في منشـورات مسـتقلة، أو في ردود عـلى مخالفيهـم، تكشـف أن منتجهـم الإخـواني لـم يكـن أبـداً متـين الخلـق، ويثبـت فشـل مؤسسـاتهم التربويـة في تعديـل سـلوك البعـض منهـم، أضـف إلى ذلـك موقـف

أفراد الإخوان من مخالفيهم ممن انشقوا عن الإخوان أنفسهم، وإطلاقهم ألسنتهم بالكلمات البذيئة عليهم ممن طالت على سبيل المثال؛ أبو العلا ماضي، أو أبو الفتوح، أو إبراهيم الزعفراني، أو محمد حبيب، أو مختار نوح، أو ثروت الخرباوي.

هنا أمامنا طريقان؛ كلاهما يؤدّي إلى إثبات فشل إنتاج فرد متين الخلق، فلو صدقنا الإخوان في اتهامهم لمخالفيهم من الإخوان أيضاً، وهذا يثبت أنّ منتجهم التربوي فاسد، خصوصاً أنّ الأسماء السابقة مضت في الجماعة قرابة الثلاثين، فلم تنفعهم، ولم تجد معهم أية تربية في الإخوان، ولم تحقق فيهم سمة (متين الخلق)، وإذا كان ادّعاء الإخوان الرسميين كاذباً، فهذا دليل قاطع على فساد المنظومة الأخلاقية (العامة) لدى الجماعة، فلم تتحقق فيهم أيضاً سمة (متين الخلق)، ولا يصحّ الاحتجاج هنا بوجود أفراد في الجماعة حسني الخلق؛ لأنّ هؤلاء ليسوا نتاج تربية الإخوان، إنما هم نتاج تربية آبائهم ومجتمعهم المحيط.

السمة الثالثة التي فشل الإخوان في إيجادها في أفرادهم (مثقفو الفكر)؛ ففي عالم الثقافة لم نجد اسماً كبيراً من الإخوان المسلمين، كما لم نجد أياً من الإخوان قادراً على تفهّم، أو تعاطي، أو التعامل مع التموجات الثقافية العالمية، ومن انخرط منهم في عمل ثقافي ترك الجماعة فوراً، إمّا بالتخلي عن أفكار الجماعة بالتدريج، أو بالفصل من قيادات الإخوان، وقد يلتبس على بعض أفراد المجتمع من البسطاء، فيظنّ أنّ كمية المعلومات التي يمتلكها الفرد الإخواني تدلّ على أنّه مثقف الفكر.

أما باقي السمات، فلا يمكن أن نقول إنّ الإخوان يمتازون عن باقي مجتمعهم، مثل؛ القدرة على الكسب، أو الحرص على الوقت.

يمكننا القول: إنّ كل جهود الإخوان التربوية لم تنتج فرداً متميزاً خلقياً، أو جسدياً، إنما نجح الإخوان في إنتاج عضو تابع لا يملك القدرة على اتخاذ قرار منفرد

«مؤسسات الإخوان التربوية فشلت في إيجاد الفرد المسلم كما يتخيله حسن البنا فهل كان يمكن للجماعة أن تربّي المجتمع؟»

إلا بالرجـوع للجماعـة، ولا يملـك القـدرة عـلى الحكـم عـلى أمـر مـا أنّـه صـواب مـن عدمـه، إلا بمـا تخـبره بـه الجماعـة، نجحـوا في إيجـاد تابعـين قادريـن عـلى ترديـد مـا يصلهـم مـن معلومـات مـن قـادة التنظيـم، أزعـم أنّ مؤسسـات الإخـوان التربويـة فشـلت في إيجـاد الفـرد المسـلم، كمـا يتخيلـه حسـن البنـا، فهـل كان يمكـن لجماعـة كهـذه أن تـربّي المجتمـع؟

ملامح سقوط المشروع الإخواني:
الفشل في إيجاد الأسرة المسلمة

ناقشنا في المقال السابق الملمح الأول لسقوط المشروع الإخواني ألا وهو فشل التربية الإخوانية في إيجاد الفرد المسلم، أمّا الملمح الثاني الدال على سقوط مشروع الاخوان، الذي سنناقشه في هذا المقال، فهو الفشل في إيجاد المنتج الثاني في مشروعهم، وهو الأسرة المسلمة؛ فجميع الأسر الاجتماعية الإخوانية هي من إنتاج المجتمع، ولا دخل للتنظيم في تكوين هذه الأسرة، إلا في فرض الزوجة الإخوانية على العضو الإخواني، أما باقي أركان الأسرة الاجتماعية فقد تمت حسب قيم وقواعد المجتمع المحيط بها.

الأسرة، وهي أصغر وحدة بنائية اجتماعية يتكون منها المجتمع، لها أركان

وقواعد ووظائف، وكون أهم وظيفة لها؛ التنشئة الاجتماعية للأجيال المقبلة، فقد ركّز الإخوان في مشروعهم على تكوين أسر اجتماعية جديدة تابعة للتنظيم، وعدّوها مرحلة من مراحل التمكين لهم؛ فاستهدف الإخوان تغيير قيم ووظيفة الأسرة المصرية، على أمل تغيير المجتمع ليخدم مصالح الجماعة والتنظيم.

كان في يقين حسن البنا؛ أنّ الأسرة الحالية، سواء في تكوينها، أو في وظائفها وأدوارها المجتمعة، أو في مضمونها القيمي، ليست أسرة مناسبة لفكره، ولن تخدم التنظيم؛ فجاءت محاولته للتغلغل في المجتمع عبر اتهام الأسرة العادية بأنها ليست مسلمة، ليكون ذلك بوابته في العبث بقيم الأسر الاجتماعية، فيقول في رسالة «دعوتنا»، مخاطباً المصريين والمسلمين جميعاً: «إنّ كلّ النظم التي تسيرون عليها في شؤونكم الحيوية نظم تقليدية بحتة لا تتصل بالإسلام، ولا تستمد منه ولا تعتمد عليه»، ثم يخص البنا نظام الأسرة والبيت بالنقد مع التأكيد المستمر على أنّه ليس متصلاً بالإسلام.

بهذا أوجد حسن البنا إشكاليتين:

الأولى: هل فعلاً نظام البيت والأسرة المعمول به في العالم العربي والإسلامي لا يتصل بالإسلام؟ والثانية: هل فعلاً الإخوان قادرون على إيجاد هذا النمط الاجتماعي الإسلامي المتخيَّل؟

إنّ ادعاء البنا أنّ النظام الاجتماعي للبيت والأسرة ليس إسلامياً، هو ادعاء مغلوط، فكلّ الأسر المسلمة وقت كتابته رسالة «دعوتنا»؛ أي في العام ١٣٥٩، كانت تقيم الصلاة والصيام في رمضان، وتحيي الشعائر الإسلامية، ولم يعرف أنّ هذه الأسر كانت تمارس عقيدة مخالفة للإسلام. إنّ مبالغة البنا في اتهام الأسرة المسلمة بأنّها ليست مسلمة، أسّس لخطاب التكفير والجاهلية فيما بعد، كما سمح بالتطاول على أركان الأسرة، وبالتالي إعاقتها عن القيام بدورها في حماية المجتمع.

مع التسليم بأنّ الأسرة الحالية ليست مسلمة؛ فهل أوجد الإخوان أسرة مسلمة حقاً؟ وما هي ملامحها المتميزة؟ وكيف

«لم يحدد البنّا علامات صلاح المرأة أو الرجل بدقة ولم يدلنا على قواعد الإسلام للبيت»

أوجدوها؟ وما الفارق الكبير بينها وبين باقي الأسر الاجتماعية في كل المجتمعات التي وجد فيها الإخوان؟ لن نجد هذا المنتج الوهمي؛ فالإخوان من منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، وهم يبشرون بأنّهم قادرون على إعادة صياغة الأسرة لتصبح مسلمة، فلم نجد أيّ تغيير في طريقة الاقتران، أو في وظيفة الأسرة، أو في أركانها؛ بل وفشلوا فشلاً ذريعاً في إنتاج الركن الثالث؛ أي إنتاج أبناء يكونوا أعضاء في التنظيم، وإليكم شاهدين فقط على هذا الفشل:

الشاهد الأول: اعتراف الإخوان داخلياً بأنّ الأسرة الإخوانية، المكوَّنة من أبٍ (عضو في التنظيم)، وأم (عضوة في التنظيم)، لم تنجح في تربية أبنائها (أبناء الإخوان)؛ فمن منتصف التسعينيات، وهو موعد قطف ثمار الأسر الإخوانية التي تكونت في نهاية السبعينيات وأوائل الثمانينيات، لوحظ أنّ كثيراً من أبناء الإخوان، خاصّة أبناء قادة الإخوان، غير ملتزمين بالإخوان كجماعة، أو بقواعد الإسلام ذاته، مما جعلهم ينشئون لجنة في قسم التربية تهتم بدراسة أسباب هذا الفشل، أسموها «لجنة أبناء الإخوان».

وقد تمّ ترشيح مربين يتميزون بقدر كبير من مهارة الاحتواء، وطُلب منهم الصبر على أبناء الإخوان والترفق بهم والتغافل عن نزواتهم، من أجل ألّا يكونوا ثغرة ينفذ منها أعداء الأمن أو أعداء الإخوان، وكان عذرهم أنّ الأخ عندما ينشغل عن تربية أبنائه، فيجب أن تقوم الجماعة بهذا الدور نيابة عنه.

الشاهد الثاني: رفض عدد كبير من أبناء الإخوان الانضمام للجماعة، رغم نشأتهم في محاضن الجماعة، ما يعني فشل رسالة الأسرة الإخوانية في إنتاج أبناء ينتمون إلى الإخوان، وهم الركن الثالث في الأسرة.

فما الذي نجح فيه الإخوان إذاً؟ كلّ الذي نجح فيه الإخوان؛ هو إيجاد (زوجة)، وهي الركن الثاني في الأسرة، وانحصر أداؤها في أسرتها الاجتماعية، على عدم إعاقة الزوج (عضو التنظيم) في تنفيذ تعليمات التنظيم، سواء في سفره، أو المبيت خارج المنزل، مع ضمانة حفظها لأسراره، وعدم إفشاء أسماء المترددين عليه من أعضاء الجماعة، وحمل الرسائل السرية بين الأخ والتنظيم في حال تعذّر قيامه بهذا، هذا كلّ ما أنتجه الإخوان في مرحلة الأسرة المسلمة.

إنّ غياب تصوّر الإخوان لنموذج الأسرة المسلمة؛ هو السبب في عدم إنتاجهم لهذا النموذج المنتظر، فبعد مطالعة

رسائل وأدبيات الإخوان، لن نجد نموذجاً متفرداً مقترحاً للأسرة المسلمة المراد تحقيقها، أو حتى بعض ملامحها؛ بل سنجد نصائح لتحسين أدوار الأسرة لا أكثر، أو كلمات عامّة مبهمة، لا تملك تفصيلاً موضحاً لماهية هذه الأسرة المسلمة، فيقول حسن البنا في رسالة «دعوتنا في طور جديد» التي كتبها في آب (أغسطس) ٢٤٩١: «إذا صلح الرجل وصلحت المرأة، وهما عماد الأسرة، استطاعا أن يكوّنا بيتاً نموذجياً وفق القواعد التي وضعها الإسلام، وقد وضع الإسلام قواعد البيت فأحكم وضعها، فأرشد إلى حسن الاختيار، وبيّن أفضل الطرائق للارتباط، وحدّد الحقوق والواجبات، وأوجب على الطرفين رعاية ثمرات هذا الزواج، حتى تنع وتنضج في غير عبث ولا إهمال، وعالج ما يعترض هذه الحياة الزوجية من المشكلات أدقّ علاج، واختط في كل نظراته طريقاً وسطاً لا تفريط فيه ولا إفراط».

نلاحظ هنا، أنّ البنا، وبعد عشرة أعوام من ادعائه أنّه سيوجِد الأسرة المسلمة، غير قادر على تحديد علامات صلاح المرأة أو الرجل بدقة، ولم يدلنا على قواعد الإسلام للبيت، ولم يضع قائمة بالحقوق والواجبات التي يجب أن يلتزم بها أعضاء الأسرة الاجتماعية، ليتصفوا بالأسرة المسلمة، لهذا فشلت كلّ برامجهم التربوية في إيجاد الركن الثاني في مشروع الإخوان وتحقيقه.

ملامح سقوط المشروع الإخواني:
الفشل في السيطرة على المجتمع

تحدّثنا في المقالين السابقين عن ملامح فشل المشروع الإخواني؛ في المقال الأول: تناولنا فشلهم في إيجاد الفرد المسلم الذي كان يراهن عليه الإخوان المسلمون، وفي المقال الثاني؛ تناولنا فشلهم في إيجاد الأسرة المسلمة، ونجاحهم في جعل أسرهم أسراً إخوانية فقط، أما مقال اليوم فسنتناول فيه ملمح فشل الإخوان في السيطرة على المجتمع.

للإخوان مفهوم خاصّ للتعامل مع المجتمع، فهم يؤمنون بأنّ عليهم تغيير

المجتمع؛ بداية من عقائده إلى مؤسساته، مروراً بقيمه السائدة، وإذا لم يتمكنوا، فعلى الأقل، يصنعون هذا المجتمع الموهوم داخل جماعتهم؛ فقد كان حسن البنا رافضاً للمجتمع الذي يعيش فيه، ويراه مجتمعاً غير متصل بالإسلام، ويرى أنّ مهمته في الحياة هي إقامة أمة جديدة ومجتمع جديد! على أسس يزعم أنها أسس الإسلام الحقّ، فيقول في رسالة «إلى أيّ شيء ندعو الناس»: «إنّ تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، ومناصرة المبادئ، تحتاج من الأمة التي تحاول هذا، أو الفئة التي تدعو إليه، على الأقل، إلى «قوة نفسية عظيمة»»، وهذه الرسالة ظهرت العام ٤٣٩١، أي في مرحلة مبكرة من حياة جماعة الإخوان المسلمين، وجاءت بعد عام واحد فقط من انتقال البنا من الإسماعيلية إلى القاهرة، وكان عمره آنذاك ٧٢ عاماً.

والسؤال الملحّ؛ هل كوّن حسن البنا هذه الأمة؟ هل نجح في تربية الشعب؟ بالطبع لا، وإن ظلّ يزعم أنّه قادر، لو أتيحت له الفرصة، ومرّت الأعوام، وتغيّرت الأحوال كثيراً مع الإخوان، صعوداً وهبوطاً، وبعد أحد عشر عاماً كاملة من التوغل في المجتمع، انتبه البنا إلى أنّه غير قادر فعلاً على تكوين أمة جديدة، وأنّ تصوّراته عن تكوين الأمم طفولية جداً، لكنّه لم يتنازل عن حلمه، فقط عدّل مطالبه؛ فبدلاً من تكوين الأمم وتربية الشعب قرّر أن يكون هدفه السيطرة على المجتمع؛ ففي اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد، يوم ٨ أيلول (سبتمبر) العام ٥٤٩١، قال: «إنّكم -أيّها الإخوان- مؤمنون بأنّ من واجب المسلم الحقّ أن يجاهد في سبيل هذا الإسلام، حتّى يهيمن على المجتمع كله، ويحتلّ مكانه الذي هيّأه الله له في دنيا البشر»، لاحظ أنّ البنا يقنع أتباعه بأنّهم مؤمنون بجهاد المجتمع نفسه، أي حمل السلاح عليه! لماذا؟ ليهيمنوا عليه! وليحتلوا المكانة اللائقة بهم فيه! وهذه المكانة هي ما هيأها الله لهم!!

لهذا، استمرّ الإخوان، وحاولوا المرة تلو الأخرى السيطرة والهيمنة

«الإخوان يؤمنون بأنّ عليهم تغيير المجتمع وفق رؤيتهم وإذا لم يتمكنوا يصنعون هذا المجتمع الموهوم داخل جماعتهم»

عـلى المجتمعـات، وهـو هـدف كامـن في وجدانهـم، مهما تنصّلـوا منـه، ومهما ادّعـوا خـلاف ذلـك؛ فالتربيـة الإخوانيـة تغـرس هـذه المفاهيـم التسـلطية والاسـتعلائية في نفوسـهم للأبـد، فـلا يـرون أنفسـهم مجـرّد مجموعـة مـن النـاس تحـاول وتجـرّب، تصيب وتخطئ، بـل هـم مـن ابتعثهـم الله ليهيمنوا عـلى المجتمعـات، ويحـوزوا المكانـة الـتي وعدهـم بهـا الله! فهـل نجحـوا؟! لـم ينجـح الإخـوان، في الأربعينيـات، أو الخمسـينيات، أو السـتينيات؛ فقـد انـصرف عنهـم الشـعب، خاصـة بعـد انخراطهـم في أعمـال عنـف، وتصـدّي أجهـزة الأمـن لهـم.

لكـن، مـع مرحلـة السـبعينيات؛ الـتي سـمح فيهـا الرئيـس السـادات لهـم بالعمـل، بالتزامـن أيضـاً مـع سـماح كثـير مـن الـدول العربيـة لهـم بالتواجـد داخـل مجتمعاتهـا، حـاول الإخـوان السـيطرة عـلى أيّ مجتمـع تواجـدوا فيـه، عـبر السـيطرة عـلى اقتصادياتـه، وعـبر السـيطرة عـلى بعـض الأجهـزة المجتمعيـة فيـه، مثـل النقابـات والجمعيـات الخيريـة.

ومـع خطـاب الإسـلام العاطفـي، ومـع ابتزازهـم للمجتمعـات بحكايـات المظلوميـة المصنوعـة، وفي ظـلّ فشـل الدولـة في تلبيـة احتياجـات الشـعب، تمكّـن الإخـوان مـن التواجـد في مسـاراتهم الثلاثـة، فتمكنـوا مـن جمـع أمـوال الإخـوان، وغيرهـم مـن العاملين في الخليـج، وتوظيفهـا في شركات التوظيـف، ولأنّهـم يهدفـون إلى السـيطرة فحسـب، وليـس إلى إقامـة مـشروع اقتصـادي قومـي كبـير، انتهـت تجربتهـم بفشـل ذريـع.

لقـد أتيحـت للإخـوان فرصـة أن يكونـوا رافعـة اقتصاديـة مهمـة في المجتمـع المـصري والعـربي، لكنّهـم افتقـدوا لوطنيـة طلعـت حـرب وحكمـة البرجوازيـة الوطنيـة في مـصر، فانخرطـوا في أنشـطة اسـتهلاكية، وانشـغلوا في التفـنّن في كيفيـة إخفـاء الأمـوال، ولـم يشـغلهم إقامـة صروح اقتصاديـة قويّـة، ففشـلت تجربتهـم الاقتصاديـة.

وتزامـن مـع تجربتهـم للسـيطرة الاقتصاديـة سـيطرتهم عـلى النقابـات، فنجحـوا- في بـادئ الأمـر- في بسـط نفوذهـم عليهـا، لكنّهـم لـم ينجحـوا في عمـل نقـابيّ

«استمرّت محاولات الإخوان الهيمنة على المجتمعات وهو هدف كامن في وجدانهم مهما تنصّلوا منه أو ادّعوا خلافه»

قوميّ ينسب إليهم؛ بل استطاعوا أن يكوّنوا عداءات كثيرة مع أعضاء النقابات، نظراً إلى اتّباعهم أسلوب السيطرة، واستغلال النقابة لخدمة أفكارهم ومشروعاتهم، وتورّطت النقابات التي سيطر عليها الإخوان في الصراع السياسي والديني في تلك الحقبة، فكثيراً ما استغلت مقرات النقابة لصالح الجماعة، وكثيراً ما كانت النقابات ستاراً للقاءات الإخوان السرية غير الرسمية، ثم انتهت التجربة قبيل وصول الإخوان للحكم في مصر، فتوالت الهزائم في النقابات، وتوالى إخراجهم، فقد فشلوا في أن يكوّنوا قوة إضافية للنقابة، صحيح أنّهم لم يتّهموا بسرقة مالية كبيرة في النقابة، لكنّهم متّهمون بسرقة النقابة ذاتها «معنوياً» لصالح الجماعة.

ثم حاول الإخوان في المسار الثالث؛ وهو السيطرة على الجمعيات الخيرية، لكنّهم ظلّوا يقدمون الأعمال الخيرية بهدف الحصول على أصوات الفقراء وقلوبهم، فلم ينالوا منهم أيّ شيء، ولعلّ ندم الإخوان على فعل الخير للشعب الذي لفظهم سياسياً، أكبر دليل على أنّهم لم يقدموا الخدمات للمجتمع لوجه الله، كما كانوا يزعمون.

كما رأينا، لم ينجح الإخوان في تكوين مجتمع، أو في السيطرة عليه، أو في تربيته، ولم يشارك الإخوان أيّاً من قوى المجتمع في أيّ مشروع نهضويّ، ولن يشاركوا؛ ففي البنية الفكرية للإخوان، يرون أنفسهم مربّين للمجتمع، وفي التكوين النفسي لهم؛ هم أعلى من المجتمع، وفي البناء التنظيمي؛ هم يتبعون قيادة ترى أنّ أخطاءها قدر من الله، فهل يمكن لجماعة هذا تفكيرها، وهذه نفسيتها، وهكذا تدير معاركها، أن يكون أعضاؤها قوة إيجابية في المجتمع، لهذا فشلوا في الماضي، وفشلوا في الحاضر، وسيفشلون في المستقبل.

«لم يشارك الإخوان قوى المجتمع بأيّ مشروع نهضويّ ولن يشاركوا لهذا فشلوا وسيفشلون مستقبلاً»

الإخوان وبناء العقلية الخرافية

يفتخر الإخوان المسلمون بأنّهم أكثر الفصائل الإسلامية احتراماً للعقل والمنطق، وأنّهم ضدّ «خرافات الصوفية»، وقد صدّق البعض ذلك، لكنّ ما كشف عدم صحة هذا الادعاء؛ ممارساتهم في المواقف العملية، وعلى وجه الخصوص أثناء الأزمات، فقد أظهروا العقلية الحقيقية المختبئة بين تلافيف الشخصية الإخوانية، ومدى توغّل الفكر الأسطوري في بنيتهم العقلية، وإن زعموا خلاف ذلك.

أول هذه المظاهر بعد ثورة ٣٠ يوليو التي أنهت حكمهم؛ انتشار مقولة «من ولّاه سيتولّاه على السنّة» بين عموم الإخوان، وهي إشارة إلى أنّهم تولّوا حكم مصر بأمر الله تعالى المباشر، وما دام الله تعالى هو

من جاء بهم إلى الحكم، فمن المؤكد أنّ الله تعالى هو من سيتولى الدفاع عنهم!

وبعد النظر في الحكايات التي تربّى عليها الإخوان؛ اكتشفت أنّ أحدَ مكوّنات التربية الإخوانية هي تجهيزهم لقبول الفكر الخرافي والأسطوري، مع ملاحظة أنّ هناك فارقاً واضحاً بين العقل الفردي لشخص ما من الإخوان والعقل الجمعي لجماعة الإخوان، ثمّ ازددت يقيناً أنّ العقل الجمعي للإخوان هو عقل خرافي في المقام الأول.

رغم كلّ ما يدّعيه الإخوان من أنّهم ضدّ الخرافة، وأنّ حسن البنا جاء ليحاربها، إلّا أنّ كتاباتهم شاهدة عليهم، وحكاياتهم المنقولة شفهياً أكبر دليل على استخدام الإخوان لمكونات الفكر الغيبي، للسيطرة على أتباعهم، ومن ثم توجيههم إلى حيث تريد القيادة، ولقد مرّت عملية بناء العقل الجمعي للإخوان بمراحل متعددة، ومحاور متنوعة على النحو الآتي:

المرحلة الأولى: تقبّل الأمور الخارقة للعادة

على مرّ تاريخ الإخوان المسلمين قاموا بتربية أفرادهم على قبول الأمور الخارقة للعادة، كأنّها كرامة لبعض الأتقياء من الجماعة، فهم يحكون عن كرامات المؤسس حسن البنا الكثير، حتى تشعر أنّه كلازمة لأشخاص الإخوان، ففيما ذكره محمود عبد الحليم، في كتاب «الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ»، ص ٧٥: أنّ الأستاذ حسن البنا شغله عن الاستذكار عمله كعامل في محلّ البقالة، فلم يجد وقتاً يؤهّله للمذاكرة، فشكا إلى الله، ونام ليلة الامتحان، فرأى فيما يرى النائم أنّ رجلاً يواسيه، ويقول له: التفت فإذا في يده الكتاب الذي سيمتحن فيه في الصباح، فيفتح الرجل الكتاب على صفحة معينة، ويشير لحسن البنا أن يقرأ سطوراً بعينها، وفقرات بذاتها، وهكذا إلى نهاية الكتاب، يقول حسن البنا للمؤلف: فلمّا أصبحت وجدتني أحفظ تلك الفقرات عن ظهر قلب، ودخلت الامتحان فإذا الأسئلة كلّها هي نفس ما قرأته في الرؤيا،

«يفتخر الإخوان بأنّهم أكثر الفصائل الإسلامية احتراماً للعقل ولكن ممارساتهم في المواقف العملية تنفي ذلك»

ويستكمل البنا: وهكذا مرّت ليالي الامتحان وأيامه على هذا النحو، وظهرت النتيجة فكنت الأول، والحمد لله! هذه الحكاية يذكرها حسن البنا بتفاصيل أخرى، لكنّ مضمونها واحد، وهو أنّ الرجل جاء إليه ومعه الكتاب وفتح صفحة كذا، وصفحة كذا، فإذا هي الإجابات في الصباح.

ومع ترديد تلك الحكاية يترسخ كثيراً لدى الإخوان أنّ قادتهم مؤيَّدون من الله تعالى، يمكنهم أن ينالوا انتصاراً وفوزاً ونجاحاً عبر المنام! إن لم تكن هذه الحكاية تخاريف، فما هي التخاريف إذاً؟

المرحلة الثانية: القيام بالمعجزات

مما يتناوله الإخوان عن حسن البنا؛ أنّه أثناء التدريبات لحرب العام ١٩٤٨ بفلسطين، بينما كان الإخوة يتدربون في بعض الجبال، تاهوا، ولم يستطيعوا الوصول لطريق السكة الحديدية، فظلّوا في حيرة، فإذا بصوت الإمام البنا يأتيهم: «سيروا في اتجاه كذا، ثم كذا»، حتى وصلوا إلى الطريق، وركبوا القطار فنزل الأخ، قائد المجموعة، إلى بيت الإمام أولاً، فطرق الباب، ففتح له الإمام وقال: هل عرفتم الطريق؟ فانكبّ الأخ يقبّل يد الإمام.

ويؤكّد القصة د.خالد أبو شادي في ملتقى إخواني قائلاً: «القصة سمعتها بأذني من الأستاذ أحمد سيف الإسلام في بيته، وهو سمعها من الأستاذ أحمد نار، صاحب القصة، والذي سمع الصوت، وقال الأستاذ أحمد نار: إنّ الإمام البنا استأمنه ألّا يذكر هذه الموقعة لأحد، ولكنّه قال للأستاذ سيف الإسلام (ابن حسن البنا) إنّك من صلب الإمام وذريته وسأقصّها عليك إكراماً للبنا في شخص ابنه».

وهذه الحكاية مذكورة في موقع «إخوان ويكي»، ولكن ألا يحق لنا أن نتساءل أين كانت قدرة حسن البنا تجاه قضية مماثلة عندما هجم الأمن المصري على الإخوان وهم يتدربون في الجبل، وألقى القبض عليهم، فيما سميت بقضية المقطم، فلماذا لم يحذّرهم؟ ولماذا لم يعرف أنّهم قادمون!

غني عن البيان؛ أنّ هذه القصّة محاولة للتشبه بحكاية يتم تناولها في

«على مرّ تاريخ الإخوان قاموا بتربية أفرادهم على قبول الأمور الخارقة للعادة بوصفها كرامات للأتقياء منهم»

التاريخ الإسلامي، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عندما نادى في المدينة المنورة على الجيش المسلم وهو يغزو في الشام؛ أن يحتموا بالجبل.

وثمة حكاية أخرى عجيبة، يوردها موقع «إخوان ويكي» تحت عنوان «صفحات من تاريخ الإخوان في العبادة والكرامات»، ويحكيها هذه المرة عضو مكتب الإرشاد عباس السيسي؛ إذ يقول: «وروى لي الأخ مصطفى المغير؛ أنّه أثناء التحقيق معه في سجن القلعة بالقاهرة، في أحداث ٥٦٩١، طلبوا منه الدخول في دولاب (خزانة) من مصراعين، وأمروه أن يقف في جزء من الدولاب متصلباً؛ حيث لا يستند إلى أيّ جنب منه، وقد وقف لمدة من الوقت، ثم استدعوه للتحقيق، وسألوه عن أسماء بعض الإخوة الهاربين، ويقول الأخ إنّه حين كان يقف في هذا الدولاب، سمع الضابط يحقّق مع الأخ المهندس سيد شريف، وهو خريج كلية الهندسة، وزميله في الكلية وسمع كلّ ما قاله عنه شخصياً، وقد استفاد ممّا سمعه منه، وهو في هذا الدولاب العجيب، وحين خرج الضابط وسأله عن سيد شريف، أجاب بما سمع، ويقول الأخ الذي وقع معه التحقيق؛ إنّه بعد أن انتهى التحقيق بعدة أعوام تقابل مع الأخ سيد شريف في سجن مزرعة طرة، أو سجن طرة، وأخبره بما حدث معه في سجن القلعة، فقال له الأخ سيد شريف إنّه لم يذهب إلى سجن القلعة على الإطلاق، ولم يحقَّق معه هناك! وأدرك الأخ أنّ الذي سمعه كان إلهاماً من الله تعالى، وهو يعيش داخل هذا الدولاب»!

المرحلة الثالثة: الاتصال بعالم الجنّ والغيب

وسأنقل هنا حكايات يعرفها الإخوان فقط! ولا دليل عليها في أدبيات الإخوان، لكنّها من واقع التلقي الشفهي في تنظيم الإخوان المسلمين.

الأستاذ علي نويتو، وهو مربٍّ من الرعيل الأول من الإخوان المسلمين، كان إذا ما التقى بالإخوان المسلمين أو الأخوات في لقاءات التنظيم، كان في منتصف اللقاء يصمت قليلاً، ويبدأ وجهه يتغير، ويشخص ببصره إلى الأعلى قليلاً، ثم يفصد جبينه عرقاً، ثم يتمتم ويهمهم، وكأنّه يكلّم أشخاصاً غير موجودين، حتى يندهش الحضور ويصمتوا صمت المترقّب.

يبدأ الأخ علي نويتو في الحديث بصوت أعلى قليلاً، وبنظرة ترحيب لذاك المجهول، ويطلب من الحضور أن يفسحوا في المجلس قليلاً، وأن يتركوا مساحة فارغة، وقبل أن يسأل الإخوان لمن هذه الأماكن،

يباغتهـم الأخ عـلي نويتـو بالقـول: أرجـو ألّا يقـترب أحـد مـن هـذه المنطقـة الفارغـة، لمـاذا؟ لأنّهـا مخصصـة للإخـوان المسـلمين مـن الجـنّ!! مِـنْ مَـنْ؟؟ نعـم مـن الجـنّ، وليـس هـذا فقـط؛ فالـذي كان يهمهـم معـه هـو الأخ المسـؤول أو الأمـير مـن الجـنّ؟!!

هكـذا تـربّى الإخـوان، وهكـذا تـمّ تجهـيز العقـل الإخـواني لتقبـل الخرافـات، والوهـم والتعامـل مـع الغيبيـات عـلى أنّهـا حقائـق، هكـذا تـمّ بنـاء العقليـة الخرافيـة الإخوانيـة الـتي تفـسّر الواقـع بحسـب قـوى غيبيـة، وعنـد الجـدّ تنتظـر مـن هـذه القـوى مسـاندة ماديـة ملموسـة، وليـس فقـط الدعم الروحـي الدافـع للتعامـل مـع الواقـع، لذلـك هـم ينتظـرون فعـلاً معجـزة خارقـة للعـادة تغـيّر سـير الحيـاة، وانتصـاراً يتعجّـب منـه الجميـع.